لغة الأطفال

إلى رئيس تحرير الآداب،

لما لهذه المجلة من ألقٍ قدسي توهَّج في عقولنا ونفوسنا، وظلّ يُومِض في وجداننا كالمنارات على شواطئ الحياة الثقافية، ونحن نَنُوه في لجج الفكر، فنهتدي بها إلى مرافئ الصواب والطمأنينة.

دعني أَحْملْ عنك قليلاً من براكين الشتائم التي سوف تُقْذف بحممها، وكأنَّ فُوَّهاتها المتوحّشة لا تنتظر إلاّ أقلَّ من قُصَّاصتيْن مُرهفتيْن من افتتاحية عدد الآداب ٢/١ ـ ٢٠٠٤ لكي تزأر سأُخفف ولو قليلاً عبءَ كاهلٍ ظلَّ، وما يزال، مُثقلاً بهاجس الأمل وحمَّى الثقافة والفكر. وما عجبي إلاّ من براكين بقيتْ ساكنة، وقد ضاع كلُّ شيء، ووحدها الآداب كانت تئنّ أنينَ أُمٍّ ثكلى لحظةَ سقوط بغداد بأيدي هَمَج اليوم. أَكُتِبَ علينا أن نُقاتِلَ دائمًا بأنين أمّهاتنا، أم أنّ الملحمين ـ عُتاةَ ثقافتنا وفكرنا ـ وَجَدوا عزاءهم بمقولةٍ إنّ هَمَجَ اليوم ـ وإنْ كانوا أغرابًا ـ أقلُّ وحشيةً من همج الأمس؟ كأنّ قَدَرنا، كما نَوَّهتَ في افتتاحيتك، هو إحدى الحفرتيْن!

في تلك الافتتاحية كان سؤالُك: «ماذا فعلنا لأطفالنا؟» كالصدمةِ أو كالبرقِ يَصعق المألوفَ، ويُحدث دويًا في ضمائرنا يَخْطف فكرَنا الرتيبَ نحو واجبنا المقدّس. لم يكن سؤالاً بل صرخةً كونيةً مقدّسة تُدمدمُ في مداركنا الكسولة وتُبعثِر موروثاتنا صرخةٌ لا يوازي قدسيَّتَها سوى المثل الإنكليزي الرائع: «إنّ النصرَ في واترلو جاءنا من ملاعب مدارس برايتون!» ربُما سيتساءل بعضُ المعلِّمين والمعلِّمات بسخرية: «مَنْ هذا المُغفّل الحالم الذي يتخيَّلُ أنّ ضحكات الأطفال فوق مراجيح ملاعب مدارسهم سوف تُسكتُ ضجيجَ المدافع؟» فيجيبها عني أحدُ الذين شاركوا في تلك المعركة: «نعم نحنُ أطفال الأمس الذين كُنا نَعْبث في ملاعب مدارسنا في برايتون وغيرِها، وكنّا نلهو فوق العُشب ونغتسِلُ برقَّة نداه إنّ رقَّةَ نداه هي التي هَزَمتْ طاغيةً مثل ناپليون »

ستردُّ عليهم عشبةٌ تقاتل دبابةً، وصبّارةٌ تثقبُ أساطيرَ مُهترئة.

وسيردُّ عليهم اليومَ طفلٌ يَحْملُ دفترًا ممزَّقَ الغلاف، وحجرًا ناعمَ الملمس، فيَهْزم بلَثْغِه طاغيةً مثلَ شارون طفلٌ لم يُتقنْ قواعدَ النحويين ولا بلاغةَ اللغويين، ولكنّه أَتْقَن لغةَ الحجر وبلاغةَ الجرح ولم يتسنَّ له أن يتعلَّم على أيدي أساتذةٍ طغاةٍ حروفَ العِلّةِ ليعتلَّ بها، ولم تُعتقل طفولتُه مثل ذلك البائس كان يَقْلبُ العينَ غينًا، وحين مَلَّ أستاذُهُ الجليل من جَلْدِه ـ وخاصةً حين يطلبُ منه أن يتغنّى بانتصار العرب على الغرب في أم المعارك ـ تتفتَّقُ عبقريةُ أستاذة عن حل ناجع فكُلَّما أخطأ هذا البائس وَضعَ على لسانه قليلاً من الشطة لِتُلهبَ عقلَه، ولكي لا يهزأ بأُمّ المعارك

العُذر كلّ العُذْرِ مِنْ نحويينا، لأنّني وجدتُ الاسم العامي للشطّة أبلغَ تعبيرًا في وجدان المُتلقّي من الفصحى

دعهم يلعنوني كما لعنوكَ لأنّك هَدَمتَ قواعدَ «النحو والبلاغة» باستعمالكَ كلمة «شنطة.» آمل، يا صديقي العزيز، أن توحِّدنا اللعناتُ بعد أن فرّقتنا أهازيجُ النصر. أَتَقْبل بي، يا سيدي رئيسَ التحرير، أخًا لك باللعنةِ؟

طبعًا هَرَبَ البائسُ من المدرسة وعاش عمرَهُ مشرَّدًا، فكان فريسةً سهلةً لأجهزة المخابرات الغربية العدوة، مُختصِرًا الزمنَ الذي طال كثيرًا على بعض الزعماء ولكنّهم سَقطوا في الحفرة كما البائسُ الفقير. وبين حفرةٍ وحفرةٍ تضيع أوطانُنا

أيُّها الأساتذة الأفاضل، نحنُ الجيلَ الذي اعتُقلتْ طفولتُه، جئنا إلى مرحلة الرجولة وقد دُمِّرتْ من عمرنا مرحلةٌ نبيلة وها نحن نَسْقط في أول امتحان، سواء كان امتحانًا في معركة مع العدو أو مع الذات. مُرَّ، أيُّها التاريخ الأرعن، غيرَ آبهٍ بنا اليوم فسيَنْتقمُ لنا منكَ أطفالُ الغد فأَنْصِتْ إليهم واسمعْ ما يقولون:

نحنُ، أطفالَ الغد، سنُحطِّمُ قيودَ طفولتنا المعتقلة. وسنَلْعبُ، ونَلْفظُ الحروفَ والكلماتِ كما يحلو لنا وسنُهشِّم قلاعَ النحويين والمربّين والأساتذة وسوف نُحلِّق بمستقبلنا ببراءة وطُهر، ونحن نلثغُ فوق مراجيحنا لكي نَسْمعَ بوضوح صوتًا حنونًا ـ كنُغاءِ الأمِّ للوليد ـ يقرأ لنا قصصًا جميلةً تذوب في ضمائرنا كقطعة البوظة التي حَرَمُونا حتى من لفظ اسمها

. ونسمع بوضوح نغمةَ «بيب بيب بيب» القادمةَ من أعماق الكون، وقد أَرسلتْها مركبةُ فضاء، لعلّها أولُ رحلةِ فضاءٍ عملاقة، بعد غزو القمر، نحو الكوكب البعيد. وسارت المركبةُ عدة سنوات، قاطعةً مسافاتٍ فلكيةً هائلة. إنَّها رحلةٌ

خرافية وُظِّفتْ لها أرقى التقنيات، وكان القائمون عليها علماءَ أجلاّءَ لم تُعتقلْ طفولتُهم لا بل على العكس، فقد اعتَقَلوا أسرارَ الكون وَشفَّروا المركبة بأوامر نبيلة. وعندما تصل إلى هدفها تُرسلُ لهم نغمةَ «بيب بيب بيب» جميلةً وجليلةً على قلوبهم، تُذكِّرُنا بأغنية فيروز «يللا تنام » إنَّها النغمة التي شفَّرتها أُمهاتُهم في مشاعرهم حين كانت تُناغيهم بها، وقد ذُهل كلُّ مَنْ سمعها. لكأنَّ السماءَ كانت أمًّا للجميع، وها هي تُناغينا بلثغ إلهيٍّ الشجو يَعْتصرُ حنانَ أمهاتنا.

هؤلاء العلماء، الذين تحوَّلوا إلى رُضَّعٍ يَلْثغون ويُناغون المجرّات، تُرى بماذا يَنْعتهم أساتذتُنا ونحويّونا؟ بالتأكيد سَيردِّدون «لو وُجدَ مَنْ يَجْلدهم أو يضعُ شطَّةً علىً ألسنتِهم، لما تجرّأوا وأَرْسلوا إلينا من أعماق الكون هذا العبثَ الطفوليَّ السخيف.»

أيُّها التاريخ، سنقتحمُك، ونعبثُ بك، ونهزُمك ككل الطغاة. وننتقم من شمعون بيريز الذي أهداهُ ياسر عبد ربّه ـ عربونًا لحسن النية ـ سندَ تمليكٍ لبيتٍ ورثَهُ عن أجدادِه هناك عند سور الساحل الغربي لفلسطين..

بالمناسبة، أحدُ اللاعبين المهرة في الفريق الأهلي المصري أَطْلقتْ عليه الذاكرةُ الشعبيةُ المصرية اسم «شطّة» لأنَّه يُلهبُ أكفَّ الشعب بالتصفيق. أرى، أيُّها الأخ رئيس التحرير، أنّ ما وَحَّدنا أعمقُ من اللعنات: إنَّه الذاكرة الشعبية التي تُفخِّخ ضمائرَنا بما هو بسيط وجميل . وإنْ كنتَ تتفوَّقَ عليّ بحرف النون، وأحسدُكَ على ذلك لأنَّكَ تتقنُ لغةَ الأطفال. وكما يتحلّقون حولكَ في معرض الكتاب في بيروت، تتحلّق الكلماتُ الرضيعة. فالنون هو النأمة، وهو النغمة، وريحانةُ الروح حين يَعْشقها الندى، والسنونو حين يُكحِّلُ أحلامَ الأطفال، والسواسنُ التي تتضوّعها قصصُك الرضيعة.

عدنان شعبان

دير الزور (سوريا)

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

أَنْصِفوني!

جاءنا ما يلي من الأستاذ وليد المحبّ. والمجلة على استعداد لنشر أيّ ردّ من المكتب الإعلامي للسفارة الكويتية في بيروت.

عزيزي رئيس تحرير مجلة الآداب،

تحية طيبة وبعد،

وليد المحب يتسلّم درعًا تقديرية من المستشار الإعلامي بمناسبة اختياره «الموظف المثالي»

فأنا المدعوّ وليد المحبّ، مسؤول العلاقات العامة في المكتب الإعلامي للسفارة الكويتية في بيروت بين عاميْ ١٩٩٩ و٢٠٠٣، أعْرض عليكم مشكلتي التالية:

في مطلع شهر نيسان ٢٠٠٣ تأثّرتُ بمشاهد الأطفال الشهداء العراقيين، ولاسيّما مشهدُ الرضيع الشهيد والمصّاصة في فمه. فقرّرتُ كتابة مقالٍ أَشْجبُ فيه وحشيةَ الحرب وأعبِّر عن رأيي بوجود اعتماد الحلّ العربي لا الاستعانة بالغرب، على أن أَنْشره في صحيفة **السفير** اللبنانية بعد استئذان المستشار الإعلامي في سفارة الكويت. وقد حصلتُ على موافقة المستشار الإعلامي وتشجيع الملحقة الإعلامية، فنُشر المقال صباحًا في **السفير** في ٢٠٠٣/٤/٣، ص ١٩ [راجع الصفحة التالية]. ولكنّي في المساء صُرفتُ من عملي بقرارٍ صادر من الكويت نفسها. وجاء في صحيفة **الرأي العام** الكويتية (٢٠٠٣/٤/٤، ص ٣) أنّ الوكيل المساعد لشؤون الإعلام الخارجي الشيخ مبارك الدعيج الصباح أَصْدر قرارًا يَقْضي بإنهاء خدماتي لأنّ المقال المذكور «انتقد السياسة الخارجية الكويتية وطالب بدعم حكم صدّام حسين.»

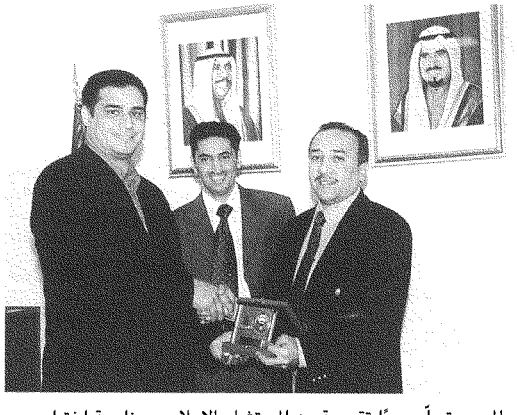

ولقد كتبتُ إلى الشيخ مبارك الصباح في ٢٠٠٣/٤/٥ أناشده إعادةَ قراءة المقال ليتبيّن بنفسه أنّي وصفتُ النظام العراقي بأسوإ الأوصاف، وتطرّقتُ إلى موضوع الأسرى الكويتيين في السجون العراقية، وتمنّيتُ أن أُعاد إلى وظيفتي لأنّني لم أَقْصد الإساءة إلى بلدي الثاني الكويت ولأنّي لم أَنْشر المقال دون استئذان المكتب الإعلامي. وفي ٢٠٠٣/٤/٧ أَرسلتُ رسالةً إلى سعادة السفير علي سليمان السعيد أُناشده رفعَ قيمة تعويض الصرف «لأنّ عليّ استحقاقات مالية لا قدرةَ لي على تسديدها» وأكّدتُ له أنّ كلَّ ما فعلتُه هو التعبير عن رأيي بالقلم ـ وهو ما يَكْفله الدستورُ الكويتي نفسُه أُرْفق طيّه كلَّ المستندات المتعلّقة بقضيتي، راجيًا معالجة أضرار ذلك القرار.

وليد المحبّ

صحيفة السفير ٢٠٠٣/٤/٣، ص ١٩:

لو كنتُ كويتيًا

لو كنت كويتيًا لتوجّستُ خيفةً من النظام العراقي، ولتراكَمَ لديَّ الشعورُ بالقلق من استمرار وجود هذا النظام ثلاث عشرة سنة بعد غزوه للكويت في العام ١٩٩٠، ولتفاقَمَ لديّ هذا الشعورُ بسبب استمرار غياب الأسرى الكويتيين في السجون العراقية، ولربما اقتنعتُ بضرورة وجود الجيش الأميركي على أرض الكويت بغية توفير الأمان وردع النظام العراقي عن معاودة غزوه للكويت، ولربما وافقتُ على حشد الجيوش الأميركية والبريطانية في بلادي وانطلاقها منها لمحاربة النظام العراقي وإسقاطه خلال أسبوع بعمليات عسكرية لا تطال المدنيين العراقيين وتَحْفظ سلامةَ البنية التحتية في العراق

لكنْ ها قد مضى اثنا عشر يومًا على بدء الحرب دون أن يتحقّق شيء من أهدافها المعلنة، وغابت أية بوادر تُظْهر إمكانيةَ سقوط النظام العراقي خلال فترة معينة باعتراف المسؤولين العسكريين الأميركيين والبريطانيين من جهة؛ ويتزايد سقوطُ المدنيين الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ بصواريخ «غبية» تخطئ أهدافها لعشرات الكيلومترات لتسقط في الأراضي التركية والإيرانية والسعودية، وما يسقط منها داخل العراق يودي بحياة عمال سوريين وطلاب أردنيين من جهة ثانية

لو كنتُ مواطنًا كويتيًا لقلتُ «اختلف الموقف،» ولتمنيتُ على حكّامي اتخاذَ الموقف المنسجم مع الشرعية الدولية والدينية والإنسانية في الطلب من الأميركيين وقفَ هذه الحرب لأنّها لم تعد تَهْدف إلى إزاحة نظام سياسي ديكتاتوري ونشْرِ الديموقراطية مكانه، بل باتت حربًا للتشفي من شعب عربي انكسرتْ هيبةُ الجيش الأميركي والبريطاني فوق أرضه

والسؤال الكبير لو كنت كويتيًا، كيف أَمَنُ مكرَ النظام العراقي في المستقبل وهو يَعْتبر الكويت المحافظةَ العراقيةَ رقم ١٩؟

أَطْلب من حكامي الرجوعَ إلى جامعة الدول العربية لمطالبتها بإرسال قوات ردع عربية يتم نشرُها على الحدود العراقية فهذه القوات إنْ لم تكن تملك الأباتشي والكروز، فهي تملك الضميرَ العربي الأجدى من كل سلاح والذي لم يتخلّ عن الكويت أيام الشدة

وهكذا تبقى الكويت دولةً سيدةً تملك قرارها، يفتخر بها العالمُ العربي والإسلامي، وتظلّ بعيون البشرية منارةً للثقافة ودولةً محبة للسلام تجود بعطاءاتها لدفع عمليات التنمية الاقتصادية في كل الدول العربية وفي معظم دول العالم

و.م.

صحيفة الرأي العام الكويتية ٢٠٠٣/٤/٤، ص ٣:

إنهاء خدمات وليد المحب من المكتب الإعلامي في بيروت

أصدر الوكيل المساعد لشؤون الإعلام الخارجي الشيخ مبارك الدعيج الصباح قرارًا يقضي بإنهاء خدمات موظف العلاقات العامة في المكتب الإعلامي الكويتي في بيروت وليد المحب، وذلك بعد نشره مقالاً في جريدة **السفير** اللبنانية تحت عنوان «لو كنتُ كويتيًا» انتقد فيه السياسةَ الخارجيةَ الكويتية وطالب بدَعْم حكم صدام حسين

وقالت مصادر لـ **الرأي العام** إنّ «وليد المحب قَبْلَ نشره المقالَ أَطْلع مديرَ المكتب الإعلامي في بيروت الدكتور عبد اللّه الشايجي عليه وأبلغه أنّه يرغب بنشره في جريدة **السفير**، وإنّ الدكتور الشايجي لم يَمْنعه على اعتبار أنّ هذا هو رأيه الشخصي »

وأضافت المصادر أنّ الشيخ مبارك الدعيج طلب من الدكتور الشايجي تقريرًا عن الموضوع وملابساته على أن يرسل له اليوم الجمعة لمعرفة كل ملابسات الأمر